بقية الحساب

قصة بقلم حسني محمد بدوي

غادر باب (المعمل) ووضع كفه على (الدرابزين) الحديدي البارد وهبط درجتين . وبثر السلم تحت عينيه غارق في العتمة. والمصعد عاطل ، وصناديق (البوسطة) على حائط المدخل وفجوة الباب حيث النور والضوضاء . أحس بصلابة الدرجات الرخامية تتلاشى تحت قدميه وألوهن في نفسه رخو وثقيل كالزئبق ، والدوار والصداع والاوجاع . ونضحت قطرات العرق من المسامات والسقوف والشقوق.

ذابت كل الاشياء في عتمة المغرب الشتوي : قضبان باب المصعد، درابزين السلم ، المصابيح الزرق الصغيرة المطمورة في البعد الغائر في الممرات الحلزونية .

ضاقت أنفاسه . تساند على الكرة النحاسية الصدئة بمدخل العمارة . والورقة اللعينة في يده تكاد أطرافها تهرأ من البلل . المساء مكتوم والصدر مخنوق وأخصائي معمل التحاليل قال ماعنده وتأكد الامر ، والابواب وراء الابواب : عديدة ، ويؤدي كل منها الى الاخر، لكنها ستنتهي الى الباب الاخير : فجوة الى حيث النور والضوضاء ، ثم يصعد مرة اخرى بمظروف الاشعة والورقة الى العمارة المجاورة ليطلع طبيبه المختص بعلاجه .

سيطرق ابوابا لا حصر لها . لقد وقع ! لم يشك مرضا طوال حياته ، لكنه كان يوجس خيفة كلما ذكرت سيرة الامراض الخبيثة. وبدنه الفاني يزفر بالدوخة وتطوح نوباتها بدماغه . أكان ذلك ممكنا؟ أكان ذلك متصورا وهو ما يزال رجلا في مطلع كهولته !

سرت قشعريرة في بدنه الهزيل ، وتدافعت هبات الهواء المالح دفاقة من ملفق الميناء الشرقي ، دنيا غادرة ! ورصيف المقهى الصغير: بذكره بانه جاء هنا كثيرا في الايام الخوالي وانتظر اصحابه : رفاقا وعمرا واسرة . أشياء ضاعت وغابت . غشته قشعريرة باردة في عظام ظهره . والان : جاءه الجواب المشئوم ! برودة ثلجية وحبات عرق سائلة على وجهه . وهو واقف داخل علبة ، صندوق : داخل المصعد . أطال ناظريه في قطعة مرآة لصقه . طالعه وجهه ذابلا شديد الاصفرار متفضنا كمومياء نصبت في تابوت .

* * *

اضواء (النيون) في (محطة الرمل) ـ والليل يتكاثف ويتثاقل في الاطراف المتباعدة ، في الشوارع الجانبية الصاعدة والهابطة، وترام (الرمل) يضج بعجلاته ووراءه شربطان لامعان لمعانا فضيا يتلاشى وراء آفاق امتداده . الصوت هادر يمتزج بهدير البحر وصخب السابلة وهو يجلس في الطرف القصي من زحام الركاب بالدور العلوي ، بجلس على المقعد المواجه مباشرة لزجاج النافذة . الزجاج الشفاف ، ووجه الطبيب يطالعه بينهم ، يدني وجهه منه وجهه ذائبة في انعكاسها مع الوجوه الادمية ، متداخلة في اعماق الزجاج الشفاف ، ووجه الطبيب يطالعه بينهم ، يدنى وجهه منه وتلفحه انفاسه ، والاوراق في يده . وضع نظارته وقرأ . هز رأسه هزة قاتلة وحرك شفتيه ! عاد يرفع الاشعة تحت كوة الضوء الذي ما لبث ان تبعثر . توهجت الذرات الضوئية في قضاء هلامي ثم امتصتها عينا الطبيب من خلف زجاج نظارته التي خلعها مرة اخرى ودس الاشعة في مظروفها الاصفر . والمعجزة من السماء . والسماء بحر صامت وكل شيء يتلاشى في الظلمة ! والالم ينمو في الاورام وذوبانه هو في المجموع جارف . والاسلاك فوقه تحت (البرش) العائم : ضائعة في الخلاء العلوي الغامض ـ وقطعان من الغمام سابحة ، بين من ورائها القمر ويتوارى . كل ما وراءه هو : يتداخل ويتداخل منعكسا فيما أمامه وفوقه ، مزيج وعصارة مختلطة . متى دبت في دمه الجرثومة الخبيثة ؟! كيف نمت واستفحلت دون ان يدري؟ تذكر ترقيته المرتقبة بكل حرقة وشغف . قال لنفسه : « لاشيء يعوضني الان عن صحتي وعافيتي وحياتي ! » امتلأت نفسه بالضيق والغم والخوف فارسل بصره الى أسفل خلال الزجاج ، ظل يرمق (الفلنكات) وهي تنابع جاربة الى الوراء بين الشريطين في نهب ، فتذوب معالمها فلا يتبين لون خشبها المتسخ ، والزيت والحصى وسواقط الاشياء المختلفة التي كان يلمحها بشيء من الوضوح والثبات عندما يتوقف الترام في محطاته . كل شيء الان استحال بلون التراب الجهم وظلال الليل الثقيلة .

* * *

وعندما مر به الترام فوق سور مدافن الموتى الارثوذكس (بالشاطبي) ، تذكر قبر أبيه هناك في مدافن (المنارة) . تذكر الدين . وحط بعينيه على شامة صغيرة على رسغه وقال لنفسه:

« كان للمرحوم أبي مثلها ، سيموت كل شيء فيك ، ويهتك التحلل كل جسمك ويأكلك الدود ويهلكك ! سيدفنك نفس الترابي الدائن لك بثلاثة جنيهات . سيدفنك هذا الرجل المدعو (عم دبورة) بلا رحمة ! » . واستولت صورته على خياله المرهق ، صورته يوم اتفق معه واعطاه اربعة جنيهات من تحت الحساب ، ليقوم ببناء مقبرة رخامية صغيرة لابيه . يذكر انه قال له يومذاك : « اموالنا عهدتك ياعم دبورة ، ساجيئك الجمعة القادمة قبل الصلاة واعطي لك بقية الحساب » .

ولم يذهب منذ ذلك الحين ، منذ مات ابوه وماتت معه اشياء عزيزة . يكره زيارة المقابر وارتياد المآتم ، لذلك هو مقطوع الصلة بالناس وغريب في مسقط رأسه ، ويحس الان بالحاجة الى صديق او قريب يؤنسه ويعزيه ، صديق ليس كالدمى ، كزملائه في (الشركة). لم يتعود منذ مدة طويلة أن يزور احدا ، لو فعل سيقول من يزوره « غاب دهرا ثم جاءنا مجتضرا .. والجري والسعي عليك يا ارض : لا راحة فيهما ولا فرح .». واذا كان اجله قد حان فليكن ذلك الان بلا ألم ، وليبته اذن كل شيء كالهبوة او النسمة من فوق ذلك الترام الطائر ! آه يا (هدى) : لشد ما أنت تعسة الحظ !

التحاليل والاشعة والطبيب وكلماته المقتضبة الباترة والحقن ونقل الدم وسرعة ترسيبه والمغامرة بعملية جراحية تجوس عبثا خلالها المشارط والاسلحة غائصة في طبقات اللحم المقطوع والدم السائح .

* * *

في ظلمة الركن على سريره : استسلم لذهول يمضغه الفم والاكتئاب . قال لنفسه ان حياته كلها انزواء صامت ، وانه يحس في اعماقه بأجله الوشيك المفجع المحتوم ، وانه لم تكن عبثا الكوابيس وفئول النحس ووساوس الشؤم التي تلاحقه بشراهة في الايام الفائتة. أبدا لم تكن عبثا . هل تقرأ الروح الغيب بعيونها الخاصة خلال عوالم مجهولة ترتادها اثناء النوم . مضى به عمره عبثا . لم يصم. لم يصلّ . ألم يشعر باطف الايمان بالله او بأي شيء آخر ؟ ولد بلا قصد وعاش بلا معنى وسيموت فجأة وينتهي كل شيء . فهل آن له أن يقوم وينادر فراشه المؤرق ويكتب خطابا لخطيبته الحبيبة (هدى) !؟ ما أشد حاجته لعزاء ! وما جدوى العزاء ؟ لم يقم. لم يفتح زجاج نافذته . ظل الشيش مفتوحا على سماء فجر مصطبغ بزرقة خفيفة كالرماد النقي الذي يكسو نفاية جمرة . مر تحت نافذته سكير مهدم ودندن بكلمات قصيرة غير مفهومة ثم تهاوى فوق أرض الزقاق عرضا . ما أقسى هذا كله على النفس ! أيقوم من فوره ويبذل جهوده ليدخل المستشفى ؟ أما اذا كان الموت محتوما وعاجلا فعليه أن يسابقه وستمتع بالدنيا في أيامه الباقية . فليسكر وليعاشر النساء ، فليعب الخمر ويضحك ويرى الدنيا ويرو جفاف حياته . وماذا يقول لهدى في خطابه ؟! وكان يمسك بأنملتيه قلما ، فراح يخط به كلمات فوق ورقة بلون سماوي ، وما لبث ان توقف فجأة وكاد يمزق الورقة ولكنه نفخ وقال لنفسه : « كل هذا لا يطاق ! ». هل يرتدي بذلته اذن وينطلق هائما وليكن ما يكون ..؟! ومع ذلك ظل واقفا وسط حجرته الواطئة السقف ذاهلا فترة طويلة ثم ما لبث ان اردت في عينيه الرؤية والوعي فغمغم بكلمات مختنقة مبهمة . وبعد دقيقة واحدة غادر حجرته وهرول نازلا متخبطا في اضطرابه . ابتلعه الشارع والترام والميدان . ونحت نور شمس الصباح راح كنقطة آدمية تدب فوق الاسفلت مثقل الخطى ، مسرعا تارة ، مبطئا تارة أخرى . اجتاز (طريق الحرية) . طواه شارع مهجور ، تخبط ظله بجواره على سور (مستشفى الاسكندرية) . ظل سائرا داس فوق احواض العشب انعطف الى مدخل شارع اكثر افقرارا . دخل من باب حديدي مفتوح أسود عال صدىء . توالت جدران مدافن (المنارة) : قديمة ، أثرية ، مقشورة ، مصدعة . بعض المقابر هنا تقوم فوقها شواهد عليها أسماء وتواريخ ، بعضها عراه البلى والتآكل والنعرية .كيف جاء برجليه الى ارض غريبة موحشة حيث الموتى والصمت والصبار والمقرئون والسقاة والفلمان .. وسأل الفلمان عن عم (دبورة) ، فتركوه بلا جواب وصعدوا فوق ربوة نزخر بمقابر وشواهد بتخللها زرع شيطاني طويل . وتردد صياح الفلمان في أذنه ، في دماغه ، ارتطم صداه بروحه كأنما هو آت من عالم بعيد :

ـ « ياعم يا دبورة ، تعالي من الشابورة ! دبورة يادبورة :ياحرامي الصابونة ! »

ونزلوا يتضاحكون اذ زجرهم رجل راح يقذفهم بالحجارة :شاب نحيل طويل القامة كالنخلة ، مترب عفر كأنما قد هب توا من كفنه جاءه وصافحه . سأله عن (عم دبورة) فاخبره ان الرجل رحمه الله قد مات فجأة منذ شهور . شرق وهو في حمام المدافن وصعد السر الالهي . وعرف صاحبنا منه أنه أبنه الاكبر وأسمه (سليمان) وانه ولد في مسكنهم القائم هناك عند مدخل (المنارة) ، ومنذ مولده هنا وهو يعمل مع أبيه الذي أورثه (كار) الحفر والدفن . نفحه صاحبنا بثلاث ورقات خضراء وقال له :

ـ « خذ الدين ، ما عليّ لابيك ، رحمه الله ، حتى يستريح ضميري . آسف لتأخري في السداد . لقد كنت في سفر ! ».

كاد يسحب من حافظته ورقة أخرى ، الا انه دسها في جيبه واتجه الى قبر أبيه على مقربة منه والشاب النرابي يتبعه .وجده مهجورا ممسوحا يكاد يتسطح على مستوى الماشي تحت الاقدام.قال للترابي :

ـ « المقبرة مهدمة تماما ! »

فقال الترابي :

ـ « نحن في خدمتك يابيه ! نبني المقبرة من جديد أو نجددها كما تشاء . فلتأمر ونحن ننفذ ! » تضاعف احساسه بالغم والغرابة وبنوبة قيء وعيناه تترصدان كفي الترابي المعروقتين وهو يقلبهما مع الكلام ومصمصة الترحم ، وما لبث ان قال له :

ـ « سأعود اليك مرة أخرى للاتفاق .... »

وغمرته موجة ارتباك ووجل . رأى الترابي ينادي شخصا ما بايقاع اسطوري مبهم غريب ثم قال وهو يشير الى بعيد :

ـ « نحن تحت أمرك يابيه ،وان كنا مشغولين هذه الايام،ربنا يصلح الاحوال وينصرنا أنظر يابيه هناك ! ارض المنارة هنا عالية ،على جبل كما ترى ، لذلك ترانا مشغولين هذه الايام الى جانب عملنا الاصلي .. انهم يقيمون المدافع على الجبل ويأتون بمعدات واسلحة كثيرة ويحفرون خنادق ... تحت أمرك يابيه .. بعد اذنك !»

ورأى هناك حيث أشار الترابي حشدا متحركا من الجنوديبدون في البعد على الاطراف المرتفعة كاللعب الصغيرة . وغادره الترابي وتوارى وراء المقابر والشواهد . وكأنما الارض انشقت عن مقرىء عجوز ضامر منطمس ، غائر العينين من اثر البؤس والاهمال وكأنما هو من مخلوقات سكان القرافة اقتعد التراب واسند ظهره العظمي الجاف على رخامة مقبرة ، وراح يتلو بصوت مسلوخ متدافع ، آيات سورة الرحمن . وهو يصيخ السمع وعيناه على مقبرة ابيه وكأنه لاول مرة يستوعب المعاني . وتاه بصره فوق سحلية تتلوى بين الحصى. تابعها حتى مرقت بين الحشائش واختفت . ووقعت عيناه على فم المقرىء وظل فترة يرمقه حتى نسيه ولم يعد يراه ولا يرى شيئا على الاطلاق برغم ان عينيه ما تزالان واقعتين على المقرىء الذي مالبث أن ختم . فارتد الى شعوره وقرأ معه الفاتحة وهو يشعر بسرعة النبض كالركض في صدره . نفحه قروشا لم يعدها . غادر المقرىء المكان في حال سبيله جارا ذيل جبته البالية الكالحة المثقوبة موجات صغيرة من تراب خفيف كفقاعات رغوة آخر رمق . قال لنفسه : « لم لا أقوم من فوري الى قسم الاشعة ومعمل التحاليل للاعادة!؟». في هذه اللحظة جاء غلام بائس بقربة صغيرة ورش الماء . نفحه هو الاخر قروشا أخرى وظل قابعا وحده فوق الشاهد الحجري المكسور . ظل وحده امام ابيه في الصمت الابدي . وحده تحوطه الاف المقابر والشواهد والصبارات العفرة والزواحف . وتحت الارض: القيعان : مكدسة بالجثث والديدان والعظام والعفن والظلمة . وسرت رجفة باردة في عظامه فارتعد لها جسمه كله وتقلصت كتفاه .

(عمر كله تعب يا أبي ! وآخرتها ؟! أف !)

زفر زفرة عصبية ونهض قائما وغادر المكان . أسرع خطاه . صادف المقرىء متلكئا متمسحا بحيطان المدفن المصفرة وقد انكفأ رأسه على صدره بعد نقوده في كفه .

انفلت من الباب خارجا ، وأخرج من جيبه مظروفا صغيرا وقد بدأ وجهه بالغ الشحوب كما ابيضت شفتاه من فرط تشنجهما المترسخ ! وهناك : في فجوة صندوق البريد المعلق على سور المستشفى اسقط المظروف الصغير ..

الاسكندرية

حسني محمد بدوي